

# المصرفية الإسلامية في البنك الأهلي التجاري

ماضٍ مجيد ومستقبل مشرق

اعداد

د. محمد علي القري

عضو الهيئة الشرعية

في إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ..

وبعد:

ابتلى المسلمون في العصر الحديث بانتشار المعاملات الربوية ولم يكن لهم بذلك عهد في القديم فقد عاشت مجتمعات الإسلام قروناً طويلة سالمة من كل ذلك، ولم يكن ذلك عائقاً من الوصول إلى أعلى درجات التقدم والنمو والرقى الحضاري الذي لم يعرف له العالم مثيلاً. وإنما تسللت المعاملات الربوية والمؤسسات القائمة على ذلك إلى بلاد المسلمين بفعل الاستعمار الغربي. لقد كان رفع بلوى الربا مطلب لكل حركات الإصلاح التي عرفت مجتمعات الإسلام في العصر الحديث بلا استثناء. وكل مسلم يتوق إلى التخلص من هذه الكبيرة التي يرى آثارها السيئة في محق بركة المال والتعرض لحرب من الله والانتهاى إلى العذاب الأليم يوم القيامة .

وليس أرباب البنوك والعاملين فيها استثناء من ذلك، فهم مسلمون موحودون يتوافقون على قدر كبير من التقوى ويتوقون إلى أن يكون لهم دور مهم في تحقيق هذا الهدف السامي. ليس غريباً والحال هذه أن نجد أن فكرة الأسلمة لم تغب عن خلد ملاك البنك الأهلي التجاري والقائمين عليه منذ أدركوا أن العمل المصرفي القائم على القرض بزيادة محرم لا يجوز. ويذكر لنا العارفون بالأمر والمقربون من ذوي الشأن في البنك الأهلي أن فكرة الأسلمة ربما تعود في هذه المؤسسة العتيقة إلى أوائل الثمانينيات الهجرية حيث راودت هذه الفكرة الشيخ سالم بن محفوظ ويأتي هذا في وقت لم يعرف المسلمون التطبيقات للمصرفية الإسلامية حيث لم تظهر إلا في منتصف التسعينيات الهجرية. فبدأ في السؤال والتحري وطلب المشورة والنصيحة والبحث عن الخبرات القادرة على الإفادة في الموضوع.

وقد قدمت خلال هذه المدة إلى البنك بعض الدراسات حول هذه المسألة وأفضل الطرق للدخول إلى المصرفية الإسلامية حتى

انتهى الأمر إلى البدء بتحويل فرع واحد على سبيل التجربة ليكون مقتصرًا عمله على المراجعة وأن يتوقف عن تقديم القروض أو الحسابات المؤجلة بالفائدة .

### الاستفادة من التجارب

لقد وجدت محاولات التخلص من الربا في كل مجتمعات الإسلام في العصر الحديث فحدثت تجارب متعددة لتحقيق ذلك الغرض. إلا أن جميع تلك التجارب لم تكن صالحة للتطبيق في مشروع المصرفية الإسلامية في البنك الأهلي التجاري . فهي أما أن تكون على صفة إنشاء بنوك إسلامية وبناءها من الصفر وهذا أمر غير ممكن إذ أن البنك الأهلي مؤسسة قائمة أو على صفة أمر بالتوقف عن التعامل بالفائدة بأمر من جهة التنفيذية خلال فترة عدة أشهر، وأثبت هذا المنهج فشله في البلدان التي سارت عليه إذ انتهى إلى مجرد تغيير الأسماء لاستحالة التحول الحقيقي دون وجود بدائل كافية وخبرات ومهارات مالية وإدارية ودراية شرعية وتدريب للعاملين وكل ذلك يستغرق سنوات طويلة . كذلك حال البلدان التي

أوجدت فروع معاملات إسلامية دون أن يكون لهذه الفروع هيكل إداري ومالي يتوافق على الاستقلال من البنك أو يكون ذلك جزءاً من هدف يتضمن التحول التام للمصرفية الإسلامية ، وهنا برزت الحاجة إلى أمرين، الأول : لا بد من فكرة جديدة للوصول إلى الهدف والثاني: ضرورة تبني منهج التدرج وجعل الأولوية الأولى هي التأكد من صحة المسار وقدرته على الوصول إلى الهدف دون إعطاء أهمية أكثر مما يجب للزمن الذي تستغرقه هذه العملية.

### إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية

يقول المثل الصيني : "لأن تضيء شمعة خير من أن تلعن الظلام ألف عام" ، ولذلك رأيت إدارة البنك الأهلي أنه ليس من الحكمة إضاعة الوقت في التنظير وتقليب الأمور والبحث عن البدائل والحال أن الهدف النهائي واضح والمطلب الأساسي معلوم فنحن نريد مصرفية إسلامية قادرة على النمو والتطور مع الزمن . من الخير والأمر كذلك اتخاذ إجراءات عملية مهما كانت صغيرة يمكن اعتبارها لبنة أولى في بناء يكتمل فيما بعد ويمكن الاستفادة

منها في معرفة نقاط الضعف والقوة ومواطن الخطر ومكامن الفرص المستقبلية. لذلك أقدم المسؤول الأول في البنك عندئذٍ وهو الشيخ خالد بن محفوظ على اتخاذ قرار بإنشاء إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية في البنك الأهلي التجاري.

لقد كانت هذه الخطوة في ظل المعطيات السائدة في أوائل التسعينيات الميلادية – قراراً بالغ الجرأة وخطوة غير مسبوقة ومبادرة كان لها أثارها لسنوات قادمة . وإطلاق اسم: إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية اسم يعكس بالضبط ما هو المطلوب من تلك الإدارة لذلك طلب منها أن تحدد لنفسها الأهداف بناء على معرفة الغرض من إنشائها . وكانت الفكرة الأساسية أن تتوافر هذه الإدارة على قدر من الاستقلال المالي والإداري بحيث تدير نشاطاً مصرفياً إسلامياً مستوفياً لمتطلبات الصحة الشرعية والنقاء والبعد عن الربا، بدأت هذه الإدارة بمدير وسكرتير ثم ربط بها فرع واحد فقط هو فرع شارع حائل في مدينة جدة حيث سمح بأن يكون فرعاً يقتصر عمله على المراجعة وعلى الحسابات الجارية .

## مصاعب على الطريق

لأن كانت القناعات واضحة لدى ملاك البنك وإدارته العليا فإن الأمر ذاته لا يمكن أن يقال عن جميع العاملين في البنك لذلك واجهت المصرفية الإسلامية في البنك الأهلي التجاري في بدايتها مصاعب جمّة ووضعت التحديات أمامها لينظر هل تصمد للاختبار أم لا وكان من ذلك الكثير.

فعلى سبيل المثال عندما أرادت الإدارة بعد سنة من تأسيسها التوسع وإضافة فروع جديدة إلى شبكتها لم يكن ممكناً إقناع إدارة الفروع بالتنازل عن أي فرع من فروعها المربحة . فلم يكن أمام الإدارة إلا القبول بتحويل فروع كان ينوي البنك إغلاقها لخسائرها المتراكمة . لقد كان الخيار المتاح للإدارة الجديدة هو : هذه الفروع أو لا فروع . وقبلت الإدارة التحدي وضممتها إلى فروعها متمثلة في قوله تعالى "إن الله يدافع عن الذين آمنوا" وخلال سنة ظهرت النتائج العجيبة إذ تحولت هذه الفروع بعد أصبحت لا تقدم إلا الخدمات

المصرفية الإسلامية إلى فروع ناجحة ومربحة بل تفوق بعضها حتى  
عن الفروع التي كانت تعد مربحة وناجحة .

ولم يكن ذلك إلا دليل على أن النوايا إذا صلحت فإن الله يكلل  
العمل بالنجاح . وهكذا قدر الله كذا المشروع أن يحقق في وقت مبكر  
النجاح الذي دفع القائمين على البنك إلى المزيد والمزيد .

### منهج التدرج

لقد تبني البنك الأهلي في تقديم الخدمات المصرفية الإسلامية  
منهج التدرج، ومنهج التدرج منهج إسلامي صحيح فتشريع الأحكام في  
الإسلام جاء متدرجاً لأن الأحكام يترتب عليها تغير ما كان عليه الناس  
من الوضع الذي لا يرضاه الله إلى الوضع الموافق لمقتضيات الشرع  
الحنيف. وإنه من رحمة الله بالعباد أن يكون هذا التغير على قدر  
طاقة الناس لذلك جاءت التشريعات الإسلامية في كل أمر احتاج  
الناس فيه إلى التدرج ، جاءت متدرجة .

لا شك أن الله قد أكمل الدين على يد نبي الرحمة ﷺ ، ولكن  
التدرج يبقى منهجاً في كل تغيير من حال لا يرضاها الإسلام إلى الحال



التي توافق أحكام الشرع ولذلك رأينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول: (إنا إذا حملنا الناس على الحق جملة واحدة تركوه جملة واحدة) كناية عن حاجتهم إلى التدرج حتى في اتباع الحق . وان تبني منهج التدرج كان أحد أهم أسباب نجاح البنك الأهلي التجاري في الوصول إلى هذا المستوى المتقدم من المصرفية الإسلامية .

ولا يعني التدرج في التحول من النظام القائم على الفائدة إلى النظام الإسلامي تدرج في التحريم بل هو في التطبيق . ورب قائل ما الحاجة إلى التدرج؟ ألا يسع إدارة البنك أن تصدر أمراً بالتوقف عن كل المعاملات بالفائدة فينفذ أمرها حالاً. فالجواب أن هذا غير ممكن من الناحية العملية إذ يترتب على مثل هذا العمل انهيار المؤسسة المصرفية إذ كيف يمكن لها أن تنهض بحاجات الناس إلى التمويل وان تقوم بوظيفة الوساطة المالية وهي لم تتوافر على الأدوات والقدرات التي تستطيع أن تستبدل بالربا المعاملات الصحيحة .

## النجاحات تتوالى

لقد ظهر بعد مرور فترة ليست بالطويلة أن معدل النمو الذي تحققه المصرفية الإسلامية في البنك الأهلي سيكون قوة دافعة لنمو البنك برمته وان الإمكانيات التي تنتجها المصرفية الإسلامية لم تزل بعد في بداياتها الأولى بالنسبة للبنك. وهنا بدأت إدارة البنك العليا تجعل استراتيجية العمل المصرفي الإسلامي . أولوية أولى للبنك . وأدركت الإدارة أن التطوير في الصيغ الإسلامية أمر ممكن وأن الشريعة ليست جامدة أو عاجزة عن النهوض بحاجات الناس ضمن نطاق المباح. وإن نجاح المصرفية الإسلامية مرهون بالقدرة على تطوير البدائل القادرة على أن تحل محل الصيغ والمنتجات التقليدية وأن تكون عند نفس مستوى الكفاءة بل أفضل من المنتجات التقليدية. من أجل ذلك اتخذ البنك "التطوير والابتكار" شعاراً للمصرفية الإسلامية، وهياً لهذا الأمر العدة من الخبراء والمستشارين والمهندسين الماليين القادرين على تصميم المنتجات الجديدة والابتكار تحت إشراف ورقابة الهيئة الشرعية. لقد أثمرت هذه السياسة

مبتكرات كثيرة سارعت البنوك في كافة أنحاء العالم بتبنيها مثال ذلك:

١- يمكن القول أن برنامج الاستثمار بالأسهم الإسلامية كان واحداً من ابتكارات البنك الأهلي التجاري إذ أمكن تحويل الفتاوى المتعلقة بالاستثمار بالأسهم إلى معايير صالحة لإدارة صندوق متخصص في الأسهم المتوافقة مع المعايير الشرعية. وقد نجح هذا الصندوق نجاحاً باهراً انتشر بعده العمل بالمعايير المذكورة من البنوك في كل أنحاء العالم بل من دوجونز التي أسست مؤشراً للأسهم بناء عليها .

٢- اخرج البنك الأهلي التجاري إلى المصرفية الإسلامية منتج التيسير الذي يعد بحق نقطة تحول في تاريخ المصرفية الإسلامية إذ أمكن تصميم برنامج معتمد على التورق الذي أفتى فقهاء الإسلام بجوازه يمكن العملاء من الحصول على النقود بشرائهم سلعة بالأجل ثم بيعها بالنقد في السوق إلى غير بائعها . وقد أصبح منتج التيسير أساس عمليات تمويل

الأفراد في كافة البنوك التي تقدم المصرفية الإسلامية ونسبة كبيرة من تمويل الشركات أيضاً . وطورت بناء عليه بطاقة اليسر التي هي بديل فريد للبطاقة الائتمانية التقليدية.

٣- ومن المخترعات المالية التي قلدها البنوك في كل أنحاء العالم وهي من مبتكرات البنك الأهلي التجاري صناديق رأس المال المأمون المعتمدة على عقد بيع العربون. وأصبح الآن أحد أهم المنتجات الاستثمارية الإسلامية .

٤- وعدد آخر من المبتكرات مثل إيجاد البديل للجاري المدين على أساس المشاركة ، وصندوق السلم الاستثماري ، وشهادات الاستثمار الإسلامية ... وغير ذلك .

### الهيئة الشرعية

عندما توسع العمل المصرفي الإسلامي في البنك الأهلي وصارت إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية تحقق نجاحات باهرة تخطت فيها كافة التوقعات ، وعندما دلت المسوح السوقية والدراسات التي قام بها البنك أن إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية بدأت تكتسب

ثقة الناس، وأن ما كان ينظر إليه سابقاً من البعص على أنه "إضاعة للوقت"، أثبت أنه مشروع سيغير وجه القطاع المصرفي برمته ليس في المملكة العربية السعودية فقط بل في دول الإسلام جميعاً.

لقد كان التزام البنك صارماً في أن ما يقدم من خدمات مصرفية إسلامية لا بد أن يكون عند أعلى وأفضل درجات الالتزام الشرعي.

وقد كان البنك يعتمد منذ اليوم للخدمات المصرفية الإسلامية على مكتب استشاري متخصص لهذا الغرض. ولكن حان الوقت لكي يكون لإدارة الخدمات المصرفية الإسلامية هيئة شرعية توجه أعمالها وتزيد من ثقة العملاء في التزامها الشرعي وتكون رقيباً على حسن التطبيق والسلامة الشرعية.

كانت هذه هي المرة الأولى في العالم الذي يؤسس مصرف تقليدي هيئة شرعية مختصة بعمل إدارة من إدارته.

عندما عرض على فضيلة الشيخ عبدالله بن سليمان المنيع عضو هيئة كبار العلماء أن يكون رئيساً لهذه الهيئة لم يستغرب القائمون على البنك أن يكون الشيخ متردداً في ذلك فقد كانت هذه

هي المرة الأولى التي يُقدم فيها بنك تقليدي على تأسيس هيئة شرعية. ولم يوافق الشيخ حفظه الله حتى كان منه استشارة المفتي العام للملكة العربية السعودية وقتئذٍ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله الذي وافق على ذلك بل شجعه عليه . فتأسست الهيئة الشرعية برئاسة فضيلة الشيخ عبدالله بن سليمان المنيع وعضوية كل من الشيخ الدكتور عبدالله المصلح عميد كلية الشريعة في أمها سابقاً والشيخ الدكتور محمد بن علي القري أستاذ الاقتصاد الإسلامي في جامعة الملك عبدالعزيز، وكان أول أمر أصدرت فيها فتاوها هو حكم التعامل مع إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية التي هي جزء من البنك الأهلي التجاري . فأفتت بالجواز وحدثت الناس على تشجيع هذه الإدارة والتعامل معها . ولم يكن دعم وتشجيع الشيخ عبدالعزيز بن باز مقتصراً على ما ذكر بل كان يرحمه الله يتابع هذا المشروع ويوجه النصيح وقد حصل من القائمين على البنك عدة زيارات لسماعته في الطائف ومكة المكرمة أثنى فيها يرحمه الله على هذا التوجه وكان يشجع القائمين عليه ويساعدهم.

## إرساء المعايير

لم يكن أحد يعتقد في أوائل التسعينيات من القرن الميلادي الماضي أن تحويل فرع واحد من فروع البنك الأهلي التجاري إلى المصرفية الإسلامية سيكون بداية تحول جذري في النظام المصرفي برمته. وأن تكون له ردود فعل عالمية لأن هذا المشروع أثبت أن بإمكان بنك تقليدي أن يقدم الخدمات المصرفية الإسلامية عند أعلى درجات الانضباط الشرعي. فكان أن اتجهت البنوك التقليدية في كل مكان يوجد فيه مسلمون إلى إيجاد إدارات متخصصة أو صناديق خاصة بالمصرفية الإسلامية. يمكن القول بحق أن مشروع البنك الأهلي كان له أثر على مسار التطور المصرفي عالمياً.

بدأت المصرفية الإسلامية في البنك الأهلي التجاري بفرع واحد هو فرع شارع حائل وكانت تساور الناس الكثير من الشكوك في إمكان فرع واحد أن يولد قدراً من النشاط يمكن معه أن يقال حتى بنجاح هذا الفرع. واليوم بعد نحو عقد من الزمان يبلغ عدد الفروع المتخصصة بالمصرفية الإسلامية ١١١ فرعاً، ليس هذا فحسب بل

أن النشاط الرئيس لجميع الفروع في البنك حتى تلك التي لا تتبع إدارة الخدمات المصرفية الإسلامية هو المصرفية الإسلامية .  
واليوم بعد عقد من الزمان نحن نرى هذه الآثار واضحة جلية :

١- جميع البنوك السعودية بلا استثناء حذت حذو البنك الأهلي التجاري وهي تقدم المصرفية الإسلامية اعتماداً على النموذج والمثال الذي قدمه البنك الأهلي التجاري .

٢- يكفي دليلاً على نجاح هذا النموذج الذي سار عليه البنك الأهلي الإنجازات الضخمة التي تحققت: لقد اختفت القروض الشخصية أو كادت في تمويل الأفراد وأصبح التمويل الفردي على أساس المرابحة والتورق والإجارة، ووصل التمويل الإسلامي بالنسبة للأفراد في البنك الأهلي التجاري أكثر من ٩٠% من مجمل التمويل ، وأصبح نحو ٨٠% من صناديق الاستثمار في البنك الأهلي التجاري تسير على النظام الإسلامي



٣- لقد ثبت أن النموذج الذي تبناه البنك الأهلي التجاري هو الأكثر فاعلية في رفع بلوى الربا وأنه قادر على التدرج نحو التحول إلى النظام الإسلامي بصورة كاملة . ولذلك نجد هذا النجاح الباهر بل أن بعض البنوك الأخرى التي سارت عليه قد قاربت التحول النهائي إلى المصرفية الإسلامية.

٤- ولم يقتصر التأثير على داخل البلاد بل أمتد إلى بلدان أخرى فقد تبنت باكستان أخيراً هذا النموذج وقد كان لها السبق في محاولة التخلص من المعاملات الربوية فسمح المصرف المركزي لبنوكها بأن تنشئ إدارات متخصصة تقدم مصرفية إسلامية مستوفية لكافة متطلبات المشروع . واتجهت البنوك في ماليزيا إلى تبني نفس النموذج وأعلن عدد من البنوك في دول الخليج اعترافها التحول إلى المصرفية الإسلامية بناء على نفس نموذج البنك الأهلي .

لقد استطاعت المصرفية الإسلامية في البنك الأهلي التجاري أن ترسي المعايير لمستقبل المصرفية الإسلامية في القرن الحادي والعشرين . وياله من مستقبل مشرق .

### الحكمة وبعد النظر

لم تكن مؤسسة النقد العربي السعودي ولا الجهات الرقابية بعيدة عما يجري في البنك الأهلي التجاري وفي البنوك السعودية الأخرى. لكن المؤسسة أثرت عدم التدخل فيما تقوم به البنوك ما دام أنها تستوفي المتطلبات المالية أنها تعمل ضمن حد المخاطر المسموح به . أما استجابة البنوك لرغبات عملائها فهو أمر تقدره هي وهو أساس نجاح مؤسسات القطاع الخاص لأن المؤسسة التي لا تستجيب لرغبات عملائها تنتهي إلى الخسران. لقد عكست هذه الاستراتيجية بعد النظر والحكمة التي توافرت عليها مؤسسة النقد العربي السعودي. ذلك أن ترك قوى العرض والطلب والمنافسة التي هي من طبيعة الاقتصاد الحر تحدد مسار ومستقبل البنوك في المملكة كان له اعظم الأثر في نمو وتطور الخدمات المصرفية

الإسلامية في البنوك السعودية. والآن تؤتي هذه السياسة أكلها فقد أخرجت لنا قطاعاً مصرفياً قوياً قادراً على المنافسة يحقق أعلى معدلات الأرباح والنمو في القطاعات المصرفية في منطقتنا العربية .

### مستقبل مشرق

ليست هذه نهاية الطريق بل بداية التحدي. ان الإمكانيات العظيمة لتطوير المصرفية الإسلامية لا يحدها حد وسيأتي اليوم القريب الذي تلبى فيه البنوك حاجات كافة العملاء بصيغ شرعية سواء كانوا أفراداً أو شركات أو مؤسسات حكومية ، لأغراض التمويل أو الاستثمار. وستكون المصرفية الإسلامية القوة الدافعة لانطلاق البنوك السعودية إلى العالم الرحب. بعد الانضمام إلى عضوية منظمة التجارة العالمية. عندئذ يكون لدى البنك الأهلي التجاري القوة التنافسية التي لا تجارى فهو يحمل للعالم مصرفية إسلامية قادمة من بلاد الحرمين . هذه البلاد التي كانت ولا تزال محل تقدير وثقة واعتزاز كل مسلم .